جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ

أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

دولة الأغالبة (184-296هـ/ 800-909م)

تمهيد: تُعدّ الدولة الأغلبية، أو دولة بني الأغلب (184-296هـ / 800-909م)، واحدة من أوائل الدويلات الإسلامية التي نشأت في بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي وانتهاء عهد الولاة. تعود أصولها إلى العرب المضريين التميميين، وكانت إمارة استكفاء تتمتع بدرجة من الاستقلال عن الخلافة العباسية في بغداد. امتدت أراضيها لتشمل المغرب الأدنى وأجزاء من شرق المغرب الأوسط).

ارتبط تأسيس إمارة الأغالبة في إفريقية ارتباطًا وثيقًا بحالة الفوضى والاضطرابات التي سادت المنطقة آنذاك، حيث تفاقمت الصراعات المذهبية، واندلعت ثورات بين الجند العرب والبربر. وعندما ورث العباسيون الخلافة بعد سقوط الأمويين، وجدوا أنفسهم يحكمون دولة مترامية الأطراف، مما صعّب عليهم فرض سيطرتهم الكاملة، خاصة بعد انتقال مركز الحكم من دمشق إلى بغداد، حيث تزايدت مسؤولياتهم في المشرق وأصبحت أولوياتهم متركزة عليه.

1- بداية تأسيس دولة الأغالبة: نتيجة للظروف السالفة الذكر، سمح العباسيون للأغالبة بتأسيس إمارتهم في المغرب الأدنى، شريطة بقائهم تحت مظلة الخلافة العباسية ورقابتها، فقد تم تأسيس الدولة الأغلبية عام 800م (184هـ) بعد أن منح الخليفة هارون الرشيد ولاية إفريقية إلى إبراهيم بن الأغلب، الذي تمكن من فرض سلطته على المنطقة بشكل مستقل نسبيًا مع البقاء تحت التبعية الاسمية للخلافة العباسية، واستمرت إمارة بني الأغلب في الحكم لأكثر من قرن، حيث تعاقب عليها أحد عشر أميرًا، كان لكل واحد منهم أثر واضح في تاريخ المنطقة.

أولاً: فترة التأسيس من (184-222هـ/ 800-838م): تشتمل على إمارات إبراهيم بن الأغلب، وابنيه أبي العباس وزيادة الله.

ثانياً: عصر الازدهار والاستقرار النسبي من (226-288هـ / 840-902م): وتمتد من نهاية حكم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بالأول من سنة 201هـ / 816م) إلى نهاية حكم أبي عبد الله محمد الثاني ثامن أمراء البيت الأغلبي، الملقب بأبي الغرانيق لولعه بصيدها، وذلك في سنة (261/ 875م)، وقد تضمنت هذه الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبي من حيث الملكات، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال إفريقية بصورة عامة، ويرجع السبب الأساس في ذلك إلى فتح صقلية؛ الذي فتح مجالاً واسعاً أمام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على المغانم، تاركين أمراء بني الأغلب في سلام، ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد، معلناً بداية التدهور.

ثالثاً: ثم تلا ذلك فترة التدهور، وتستمر من (289-296هـ / 902-909م): لم تزد فترة الاستقرار الحقيقية التي يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة عن ثلاثين سنة على الأكثر، ولكن هذه الأسرة، على الرغم من قصر مدة الاستقرار في أيامها، فإنها تعتبر صاحبة الفضل في إرساء أسس إفريقية الإسلامية؛ الذي أوجزنا الحديث عن جهادها في سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والبقاء في نطاق الأمة الإسلامية العامة، كان في حاجة إلى فترة استقرار طويلة بعض الشيء، كي تثبت القواعد الاجتماعية والحضارية التي تمكن من تكوينها والحفاظ عليها خلال اضطرابات عصر الولاة، وما وقع فيها من انقلابات وتغير الأحوال، وقد أتاح له بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار، وأقاموا في بلاده حكومة محلية ذات طابع إفريقي، ثم إن بني الأغلب كانت فيهم عروبة صادقة، واهتمام بشؤون العلم والحضارة والمنشآت، فكان العصر في جملته، رغم كثرة حروبه واضطراباته خيراً على إفريقية، وخطوة واسعة إلى الأمام في بقاء المغرب الإسلامي.

2- الحياة الاجتماعية والسياسية:

لقد امتازت الحياة الاجتماعية في دولة الأغالبة بتنوع كبير في تركيبتها الاجتماعية، وقد حدث بينهم تمازج وانصهار في ظل ذلك التعايش الاجتماعي التي شهدته الدولة ويمكننا أن نقدم أمثلة عن بعض فئات المجتمع:

1 - البربر: وهم سكان البلاد الأصليون ويقسمون إلى طائفتين: طائفة البربر الحضر المعروفين بالبرانس الذين يسكنون النواحي الخصبة والسفوح المزروعة ، وهؤلاء يعملون بالزراعة والصناعة، نتيجة لاتصالهم بحضارة القرطاجيين واللاتين والبحر المتوسط، وطائفة البربر البدو المعروفين بالبتر الذين يقيمون في الصحارى والواحات، وهؤلاء يعيشون على الرعي.

2- العنصر العربي: فقد دخل مع مطلع الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب ، فالعنصر العربي دخل بلاد المغرب في صورة جيوش فاتحة ، وقد استقر رجال هذه الجيوش في نواحي المغرب كله بعد إتمام الفتح، ولحقت بهم جماعات أخرى من الجند والمهاجرين العرب مع استمرار حركة الفتح .

وكانت نتيجة ذلك قيام مجتمعات عربية صغيرة معظمهم في المدن والمعسكرات، ومن هذه المراكز بدأوا ينتشرون في نواحي البلاد ، ولحقت بهم جماعات من المهاجرين غير العسكريين أو غير الرسميين ، وهؤلاء جميعا تكون منهم ما يعرف بالعرب البلديين، أي عرب إفريقية الذين استقروا فيها واعتبروها وطناً لهم دون أن يتخلوا عن عروبتهم، فكانوا يتمسكون بأصولهم القبلية ويتحدون ضد الجند العربي الذي كانت ترسلهم الحكومة المركزية الإقرار الأمن في البلاد، وقد عرف هؤلاء الجند العربي بالشاميين لا لأنهم جميعاً من أهل الشام ، بل لأنهم كانوا يأتون من الشام وهي قاعدة الحكم في العصر الأموي.

3 - الروم: وهم البيزنطيون الذين وجدوا في البلاد إذاك وكانوا حكام البلاد ، ومع الفتح العربي اختفى معظمهم ولم يبق منهم إلا جماعات قليلة كانت تقيم على السواحل ومدنها وخاصة قرطاجة، وكذلك في بعض بلاد الجري ، وأغلبهم اعتنقوا الإسلام وذابوا في سكان البلاد إلا من هاجر منهم إلى صقلية وغيرها من بلاد الجنوب الأوروبي.

4- الأفارقة أو الأفارق: فهم أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية حيث يعملون بالزراعة والصناعة، وقد ذكر ابن عبد الحكم في تاريخه عنهم قوله: "وأقام الأفارق وكانوا خدماً للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم".

واجه الأغالبة ثورات داخلية، خصوصًا من القبائل البربرية والفصائل المناوئة للحكم العباسي، فقد شهدت الدولة عدة ثورات من القبائل البربرية التي رفضت الهيمنة العربية، لكنهم استطاعوا قمع معظم هذه التمردات بالقوة العسكرية وبالسياسات الإدارية الذكية، كما لعبت فرقة الخوارج دورًا محوريًا في زعزعة الاستقرار عبر ثوراتهم المتكررة، وخاصة في المناطق الجبلية، إضافة إلى تلك التحديات التي واجهتها دولة الاغالبة فقد أثر الجند العرب الذين كانوا يشكلون جزءًا رئيسيًا من الجيش الأغلبي بشكل مباشر في زعزعة الاستقرار السياسي، بحيث قاموا بعدة انتفاضات بسبب تأخر دفع الرواتب وسوء المعاملة.

خلاصة: شهدت دولة الأغالبة (184-296هـ / 800-909م) فترات من القوة والازدهار، لكنها تعرضت لاحقًا لعدة عوامل داخلية وخارجية أدت إلى سقوطها. ومن أهم الأسباب التي ساهمت في انهيار الدولة:

1/ ضعف الحكام وتدهور الإدارة: خلال العقود الأخيرة من حكم الأغالبة، أصبح الأمراء ضعفاء وغير قادرين على إدارة الدولة بكفاءة، حيث انشغل بعضهم باللهو والترف، مما أدى إلى تراجع هيبة السلطة المركزية. كما انتشر الفساد الإداري وسوء استخدام السلطة، مما زاد من حالة السخط بين العامة والعسكريين على حد سواء.

2/ تفشي الصراعات الداخلية: كان للصراعات داخل البيت الأغلبي أثر كبير في إضعاف الدولة، فقد نشبت خلافات بين الأمراء على الحكم، مما أدى إلى انقسامات خطيرة داخل الأسرة الحاكمة. كما أدى تعيين بعض الحكام غير الأكفاء إلى تفاقم الوضع السياسي، وأضعف ولاء الجيش للدولة.

3/ تزايد نفوذ القبائل والعناصر العسكرية: اعتمد الأغالبة في حكمهم على جيش من المرتزقة، وخاصة الأتراك، والذين ازدادت قوتهم وأصبحوا عاملاً مؤثرًا في تعيين الحكام أو عزلهم. هذا النفوذ العسكري المتزايد أدى إلى حالة من عدم الاستقرار، حيث كانت الجيوش كثيرًا ما تتدخل في السياسة.

4/ تدهور الاقتصاد وانتشار المجاعات: عانت الدولة الأغلبيّة من أزمات اقتصادية متكررة، حيث انخفضت الإيرادات بسبب تراجع التجارة وزيادة الإنفاق العسكري. كما أثرت المجاعات والأوبئة على السكان، مما زاد من الاستياء الشعبي تجاه الحكومة.

5/ التهديدات الخارجية وظهور الدولة الفاطمية: مع ضعف الأغالبة، بدأت الدعوة الفاطمية بقيادة الداعية الشيعي أبو عبد الله الشيعي تكتسب زخمًا كبيرًا، خاصة في أوساط القبائل البربرية مثل كتامة. استطاع الفاطميون استغلال الاستياء الشعبي ضد الأغالبة، ونجحوا في حشد التأييد لقضيتهم، مما مهد الطريق لسقوط الدولة الأغلبيّة.

6/ سقوط القيروان واستيلاء الفاطميين على الحكم: في عام 296هـ / 909م، تمكن أبو عبد الله الشيعي من هزيمة آخر حكام الأغالبة، زيادة الله الثالث، الذي فرّ إلى المشرق بعد أن فقد السيطرة على الدولة، دخل الفاطميون القيروان وأعلنوا قيام دولتهم، منهين بذلك حكم الأغالبة في إفريقية.